Arabic Renewal Journal مجلة التجديد العربي

مجلة دولية نصف سنوية محكمة شاملة تصدر عن المعهد العالمي للتجديد العربي العدد الثاني/ يوليو 3202

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

تثوير الخطاب وتوازن البنية الفنية في رواية "حبيبتي مريم" لهدى عيد (دراسة وصفيّة تحليليّة)

د. زاهر محمد حنني

عميد كلية الآداب/ جامعة القدس المفتوحة/ فلسطين

zhanani@qou.edu

المستخلص:

تراوحُ بكَ بين أشد حالات الجدل، وأبسط حالات الحوار، ومن أشد حالات التوتر، إلى أبسط حالات المرونة، تلك رواية (حبيبتي مريم) للكاتبة العربية الدّكتورة هدى عيد من لبنان.

تعمل هذه الدّراسة على استجلاء الأبعاد الفنية في الرواية، من خلال البحث في مراميها الفكرية، ومضامينها الاجتماعية، وحبكتها الروائية، وتحليل لغتها، وصولاً إلى محاولة الإحاطة ببنيتها الفنية ومعمارها الهندسيّ ورؤيتها الفكرية، وذلك من خلال المنهج الوصفيّ التحليلي الذي أسهم في بيان قرارة التوازن، في البنية الفنيّة لهذه الرواية.

وقد بيّنت أبرز النتائج أنّ الكاتبة امتلكت، في روايتها، القدرة الفنية التي جعلتها تحافظ على عناصر التحكم لبناء توازن فكريّ رصين في موضوع مشحون بالتّوتر وبالصراع، بدءا من الصّراع النفسي داخل الشخصيات، وانتهاء بالصّراع مع ذوي النفوذ، من خلال سيطرتها المُحْكَمة على بنيتها اللغوية.

الكلمات المفتاحية:

حبيبتي مريم، هدى عيد، تثوير الخطاب، الأبعاد الفنّيّة، المرامي الفكريّة، المضامين، توازن البنية الفنية.

Discourse Revolutionization and The Balance of The Artistic Structure in The Novel (Habibti Maryam) By Hoda Eid.(Analytical descriptive study)

Abstract:

It Swings the reader between the most intense controversial cases and the simplest cases of dialogue, from the most tension points to the simplest cases of flexibility. This is the novel (Habibti Maryam) by the Arab writer Dr. Hoda Eid from Lebanon.

This study seeks to explore the artistic dimensions of the novel, through examining its intellectual aims, social contents, narrative plot, and analyzing its

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369
language, in an attempt to grasp its artistic and architectural structure, , and intellectual vision. Through the descriptive and analytical approach, which contributed to clarifying the basis of balance in the artistic structure of the novel.

The most prominent results showed that the writer in this novel possessed the artistic ability that enabled her to maintain the controlling elements to build a sober intellectual balance in a topic fraught with tension and conflict, starting with the psychological conflict, and ending with the conflict with the influential characters, through her tight control over her linguistic structure.

Key words:
Habibati Maryam, Hoda Eid, revolutionizing discourse, Artistic Dimensions, Intellectual Goals, Contents, Balance of the Artistic Structure.

مقدمة:

تتقصّى هذه الدراسة (تثوير الخطاب وتوازن البنية الفنية في رواية "حبيبتي مريم"(عيد، 2022)) ([1]) للكاتبة العربية من لبنان الدكتورة هدى عيد، وهي رواية صدرت حديثا، تتناول فيها الكاتبة جوانب من حياة اللبنانيين في ظل الأحداث الأخيرة المشتركة بين البشر جميعا، والتي شهدها العالم (جائحة كورونا)، وما يعانيه لبنان من أحداث تزامنت مع الجائحة، أو سبقتها أو تبعتها، من خلال قصة واقعية؛ قد تكون وقعت أحداثها كما هي، وقد تكون محتملة الحدوث، في بيئة تشهد توتراً وتناقضاً وصراعاتٍ لمّا تنته بعد.

عملت الدرّاسة الّتي بين أيدينا على رصد مواطن التوتر والصراع في الرواية، في محاولة للإجابة عن السؤال المحوري: هل استطاعت الكاتبة أن تحافظ على التوازن الفني في عرض القصّة، وفي تحولاتها ومشاهدها؟؛ وذلك في سعي إلى وصف الجوانب الفنية في الرواية، وتحليلها وصولا إلى الإجابة عن السؤال المطروح؛ ولهذه الغاية تناولت الجوانب الفنية البارزة فيها، بدءا من طبيعة الرواية وموضوعها، مرورا بالقضايا الاجتماعية، والمسائل الفكرية، والأشكال الفنية وأبعادها الجمالية، وصولاً إلى تبيّن الجوانب الانفعالية فيها. وذيلت الدراسة بخاتمة تبين أبرز النتائج التي توصلت إليها، وأبرزها: استطاعت الكاتبة أن تحافظ على عناصر التحكم لبناء توازن فكري رصين، في موضوع مشحون بالتوتر

[1] – (د. هدى عيد: ناقدة وروائية وأستاذة جامعية، صدر لها حتى الآن تسع روايات ولها عدد من القصص، وأبحاث في النقد الأدبي).

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

والصراع، بدءا من الصراع النّفسي داخل الشخصيات، وانتهاء بالصراع مع ذوي النفوذ، في خطاب صاغته بلغة فنية عالية.

أوّلا: إشكاليّة التّجنيس انبثاقًا من موضوع الرواية

لا يمكننا الادعاء أن الرواية الّتي بين أيدينا رواية بوليسية وفق المفهوم المتداول للروايات البوليسية (روايات التحري)؛ وهو مفهوم يرى أن: القصة البوليسية تندرج "تحت إطار السرد القصصي عامة ومن ثم فهي ليست جنسا قائما بذاته، بل هي من الأنماط السردية المتداولة مثل قصص الخيال العلمي، وقصص الأطفال"(مؤدن، 2009، 83) أو أنّ "الرواية البوليسية لون خاص جداً من ألوان الأدب، تنتقل بالقارئ إلى عالم الجريمة المناقض بأحداثه وحركته لرتابة الحياة اليومية، وتَعِدُه بحتمية تحقيق العدالة في النهاية، بطلاها اثنان: مجرم يوقظ فينا القلق مما يمكن للحياة الاجتماعية أن تحمله من مخاطر، وشرطي أو محقق يأوي قلقنا ويبدده بفعل قدرته على الانتصار للحق"(سحاب، 2010)، وبالتالي فإنني أرى مع من يرى أن "الكتابة البوليسية، أو الكتابة التي تتخذ من الجريمة موضوعا أساسيا فيها، ينكب اهتمام كاتبها على إيجاد حل للغز الجريمة عبر محقق أو متحر، ليست هذه الكتابة من الأدب في شيء، ذلك أن استخدامها للغة أو توظيفها لعناصر الغموض والتشويق والقدرة التخيلية، ليس كافيا ليصنفها في مستوى الكتابة الأدبية، فالنص الأدبي بلغته وموضوعه وطريقة طرحه، وبالأفق الغائي الذي يسمح للمتلقي والقارئ بالتفاعل مع المضامين التي تصير معرفية تدفع نحو تصور وأفق قرائي وإنتاجي جديد للنصوص الأدبية"(دحو، 2015، 50)، وعليه فإنني أخرج نوع هذه الرواية من تصنيفها كرواية بوليسية خالصة؛ فموضوع الرواية ليس جريمة يسعى إلى حلها محقق وفق المفهوم التقليدي، بل إن الجريمة في الرواية أكبر من ذلك بكثير، والتفاصيل التي عرضت لها الكاتبة تنأى عن أن تكون متمحورة حول قضية جنائية فردية، وربما وصفها بأنها جريمة بحق شعب أدق. كذلك سنبين في قراءتنا هذه كيف أن الرواية في جوانبها الفنية ولغتها وطبيعتها، لا تصلح أن تكون رواية بوليسية. وما يدفعنا لمناقشة هذه المسألة أن في الرواية جريمة يسعى بعض أشخاصها للوصول إلى الحقيقة حول مَن اقترفها، ولكنها تذهب في مضمار الترميز الفني العميق لتطرح مشكلة شعب بأكمله.

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

كما لا يمكننا أن ندعي أن الرواية تعالج موضوع الآيديولوجيا البراغماتية([2])، على الرغم من أنها تتناول جانبا منه؛ إذ تبين أن أصل الصراع في الرواية بين المغلوب على أمره، وبين الطبقة الغالبة التي تسعى لتحقيق مصالحها على حساب الإضرار بالآخرين.

الشخصية المحورية/ الرئيسة في الرواية هي شخصيّة (غريب جوال) الّذي ماتت زوجته (حبيبته مريم)، ليكتشف لاحقًا أنها قُتلتْ، فيسعى لمعرفة من قتلها. له ابنة (جودي) استشهد زوجها (دانيال) في حادثة تفجير ميناء بيروت الأخير، وترك لها طفلة(ليليا)، أمّا ابنه (حكيم) فيفضل الهروب من لبنان، والعيش في بريطانيا؛ لأنها أكثر أمنا. يبدو للوهلة الأولى أن هذه الأحداث اعتيادية، ولكن التفاصيل التي تعرضها الكاتبة تجعلنا نتبين أنها ليست كذلك؛ فما خلفته هذه الأحداث وغيرها ترك أثرا نفسيا كبيرا، وقاد إلى حالات من التوتر والانفعال، ليس على الصعيد الفردي، وإنما على الصعيد الجمعي، ليستنتج المتلقي أن هذه الأحداث قد يتعرض لها أي مواطن في لبنان، بل وتمتد لتشمل بنية مجتمعنا العربي كله، وتصير الجريمة الفردية تعبيراً عن همّ أمة بكاملها. تقول الكاتبة في وصف مشهد: "صودف، وأنا في طريقي إلى المدينة، حدوث عملية تبديل لقوات الطوارئ الدولية. يقومون بذلك، في خلال الصباح عادة. ظللت أقود السيارة ببطء، وقافلة القوات الدولية UN التي ترعى أمننا المهتزّ تسير أمام سيارتي، ما اضطرني إلى خفض معدل سرعتي. يسيرون متلاحقين صفا طويلا. (يخافون منا) أقول في داخلي، مدجّجون من خارج، مرتجفون من داخل، عالم يحيا انفصامه..."عيد، 2022، 97) وهذا يشير بوضوح إلى أبعاد أكبر من هموم فردية.

ثانيا: الأبعاد الاجتماعية في الرواية

[2] – الأيديولوجيا البراغماتية: هي أيديولوجيا نفعية ذات نظام فكري متصل بمجموع الأفراد أو الجماعات بمختلف توجهاتها الفكرية والثقافية، وترتبط بالطبقة السياسية والبورجوازية وبالشخصيات الانتهازية التي تسعى إلى استغلال كل ما يخدم مصالحها، ولا يهمها ما قد ينتج جراء تصرفاتها البراغماتية ما دامت تخدم مصالحها الخاصة حتى وإن كانت على حساب الآخرين. والملاحظ أيضا على الشخصيات البراغماتية أن لها علاقات مختلفة مع جهات متعددة لاشتراكها في المصالح، وبذلك تعم الفائدة والمنفعة هذه الجماعات، وتضر بالآخرين الذين غالبا ما يقعون ضحية هذه الأيديولوجيا. (ينظر: بوحرة، غنية: مظاهر الصراع الأيديولوجي في رواية الأزمة الجزائرية، موقع مركز جيل البحث العلمي، على الرابط: (https://jilrc.com/archives/3330

مجلة دولية نصف سنوية محكمة شاملة تصدر عن المعهد العالمى للتجديد العربي العدد الثاني/ يوليو 3202
ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

لا بد من الإشارة إلى هذه الرواية في سياقها الاجتماعي والاقتصادي؛ لأنها تركز بشكل مباشر رؤيتها الفنية في محيطها الاجتماعي، وتربطه بواقع ثقافي وفكري، يجد القارئ نفسه منخرطا فيه، في مواجهة الأزمات المصيرية التي تعصف بالأمة. ومما يلفت الانتباه بداية أن الكاتبة كسرت رتابة التسلسل الزمني في عرضها للأحداث، وفي ربطها بمحيطها الاجتماعي، الأمر الذي يدعو إلى التأمل في فنية العرض أكثر من النظر إلى التفاصيل التي يشعر القارئ أنه يعيش حالاً لا تختلف كثيرا عن حالها، وهذا لا ينفي كون المجتمع قد "قدم للفلسفة وللرواية، على حد سواء، خدمة جليلة، تمثلت خصوصا في أن الحياة الاجتماعية داخل الحارات والأحياء والأرياف والمدن هي المورد الحقيقي لأفكار الفلاسفة وقصص الأدباء" (عرين، 2022، 41).

اهتمت الكاتبة باستعمال لغتنا الاجتماعية المألوفة، لكنها لغة فصيحة، لم تنصرف صاحبتها إلى توظيف العامية، فلم تكن اللّغة مبتذلة أو مرذولة، وهذا يعبر عن السياق الاجتماعي الثقافي الذي يحيلنا على تأكيد أهمية الفصحى في الوصول إلى كل شرائح المجتمع، من ناحية، ومن ناحية ثانية يؤشر على الواقع الاجتماعي كما هو. كذلك جاءت شخصيات الرواية ممثلة لشرائح متنوعة في المجتمع، ليجد القارئ –مهما كان– نفسه فيها. وإذا كانت مشكلات المجتمع تتحدد في سياقها الاقتصادي، فإن الرواية ربطت الواقع الاجتماعي بالواقع الاقتصادي وسلطت الضّوء عليه، فهي تعرض أحداثا وقعت في ظل إشكالية البنوك/ المصارف المعروفة مؤخراً في لبنان، وتردي حال العملة المحلية (الليرة) في مقابل العملات الأخرى، نتيجة سيطرة البنوك وتحكمها في حياة الناس، وهي تعالج إشكالية جديدة (على الأقل ليست مألوفة) هي إشكالية سيطرة رأس المال والمتحكمين فيه، فضلاً عن مشاكل أخرى فاقمت الأزمات (كورونا، تفجير الميناء، إشكالية البنوك، عدم توافر النفط....) بعد ما أطلق عليه (الحرب الأهلية) وسيطرة الميليشيات الطائفية على مقدرات الوطن.

في ظل هذه المعضلات الكبرى ستجد (المواطن) يعاني، أينما ولّى وجهه، وهذا ما تتناوله الرواية؛ لتقول: المواطن ما عاد يحتمل؛ لأن قدرة الإنسان العادي على الاحتمال محدودة، مهما عظمت. ومن مخرجات هذه الحال، صار المواطن (المغلوب على أمره) يخاطب نفسه، وينسى حاله، ويعيش ولا يعيش، وقد يصاب (بشيزوفرينيا) ويكون أقصى همه أن يوفر لقمة العيش لأسرته، ولا يستطيع. وفي ظل هذه الأجواء يتعين على المواطن الذي لا يسند ظهره (بمسؤول) أن يتحمل ولا يتكلم، ويعيش الظلم في أشد حالاته، ولا يجابهه، وهو أمر رفضه غريب جوال، وأصر على معرفة حقيقة ما جرى لزوجته،

مجلة دولية نصف سنوية محكمة شاملة تصدر عن المعهد العالمي للتجديد العربي العدد الثاني/ يوليو 3202
ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

بإصراره على فتح قبرها والتحقيق فيما تعرضت له، وكيف قتلت، الأمر الذي يتعارض مع بعض المفاهيم القارّة في أذهان شريحة من المجتمع، ولم يوافقه عليه أحد، إلا أن إصراره قد تحقق في النهاية ليتبين أنه كان على حق. وبهذا فإن الكاتبة تقودنا إلى تأكيد كون الرواية ليست "تجسيدا للواقع فحسب، ولكنها فوق ذلك موقف من هذا الواقع، وهذا الموقف لا يمكن أن يتشكل إلا بإعادة إنتاج هذا الصراع الواقعي والآيديولوجي في النص"(عباس، 2014، 58).

لا بد من الإشارة هنا إلى أن محاكاة الواقع الاجتماعي –إن جاز التعبير– في هذه الرواية جاء بلون فني بديع صاغه عقل الكاتبة قبل أن تدون محاكاتها؛ فهي ليست استنساخا للواقع كما هو، وإنما محاورة لواقع الفساد والمحسوبية وتحكم رأس المال، فضلا عن محاورة القيم التي آن الأوان أن تتطور وفق معطيات العصر الحديث، وليس أدل على بعض هذه الصور مما ناقشه سرد الكاتبة في زواج المسلمة من مسيحي، أو منع فتح القبر، أو التفاوت في مواقف الشخصيات الرئيسة من أحداث الرواية، حتى لنكاد نصل إلى رؤية مفادها أنّ "مريم هي لبنان"، وهي ليست حبيبة غريب وحده، وإنما حبيبة الجميع، وأن اغتصابها وقتلها المسجل ضد مجهول، يحتاج إلى قوة اجتماعية تتساوق مع القوة الفكرية وقوة الإرادة؛ كي يحاسب القاتل. لهذا ظلت الكاتبة مصرة حتى نهاية الرواية؛ إذ جاء على لسان غريب قوله لابنه حكيم عندما عرض عليه البقاء النهائي في لندن:" نبقى هنا ونترك بيوتنا يا حكيم؟ طيّب وأمي وأبي، ودانيال، وكل أحبتنا الذين انتقلوا إلى منازلهم الأخرى، من سيستقبل أرواحهم الندية عند تطوافها ببيوتنا؟ وحبيبتي مريم من سيفتح لها متى طرقت، في ليل مقمر، علينا النوافذ والأبواب؟!"(عيد، 2022،231)

ثالثا: الأبعاد الفكرية في الرواية

تفتح الكاتبة في هذه الرواية آفاقا جديدة للحوار الفكري، بجرأة متقدمة، وبفنية عالية، ووعي متفرد، بحيث أقامت سردها على أفكار متقدمة، استلتها من لوحات اجتماعية ذات أبعاد سياسية، وأقامت بنية الرواية على (موضوعات) فكرية آن لنا أن نتعايش معها ونفكر بها، لنصل إلى مرحلة البدء بالتغيير، وكان قوام رؤيتها إبراز دور المثقف في هذا الفعل، إذ ما زال المثقف في طور المحاولة من أجل أن يحتل مكانة تؤهله لتأدية دوره في بناء مجتمع متقدم.

مجلة دولية نصف سنوية محكمة شاملة تصدر عن المعهد العالمى للتجديد العربي العدد الثاني/ يوليو 3202
ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

نواة الفكر الواعي تبدأ من الرفض والتمرد، وأدب التمرد المعاصر يقوم على "التزامه بقيمة خلقية ما، على عكس أدب العبث الذي ينطوي على إنكار كل قيمة خلقية؛ ففي عالم ينتفي فيه التواصل وتفقد الأشياء معناها وتجف ينابيع اللغة، بل ينابيع الحياة نفسها، تخفت بل تتوارى النبرة الأخلاقية، ويواجه الفرد كوناً أخرس محايداً بل معادياً، بل يجد نفسه في صحراء ميتافيزيقية قاحلة جرداء، أما في عالم التمرد والسخط فإن هناك تأكيداً للذات وللمجتمع في الوقت نفسه، وبعثاً للقيم الأخلاقية"(الخراط، د.ت، 213–214). وهذا ما جسدته شخصية غريب الذي رفض الانصياع للأمر الواقع والاستسلام له، برغم التهديدات المبطنة، إذ أصر على فتح قبر زوجته بعدما شككه الطبيب الذي عاين جثتها قبل دفنها مبيناً أنها مارست الجنس قبل موتها بربع ساعة، وبعد أن تبادر إلى ذهنه أنها خانته، وبسبب من وعيه ومعرفته بها، وأنها لن تخونه، فقد استبعد المثقف المفكر في شخصيته هذا الاحتمال، وإن لم يكن نهائيا، مؤقتا على الأقل، واستند في هذا على حوار ذاتي أقنع فيه نفسه (والمتلقي) باستبعاد هذا الشك، من خلال علاقته الحميمة الطويلة معها، وليكون مثقفا أكثر إقناعا، فقد ذهب يستجلي ما دونته في حاسوبها، ليجد أن نشاطها الصحفي وآراءها هي ما دلَّ أن (مسؤولا كبيرا) كان وراء اغتصابها وقتلها. وتتوقد حالة الفكر المتأزم في هذا البلد كما توقدت حالة غريب عندما فتحوا القبر ولم يجدوا الجثة، وكان الكفن فارغا. ولنا أن نتصور حجم التوتر الذي رافق مسيرة أحداث الرواية في نفس غريب بداية، ثم في نفوس من يحيطون به، ولم يتمكنوا من تقديم شيء له للتخفيف من توتره. الأمر الذي انعكس توترا في نفوس المتلقين، وكان علينا التقاط أنفاسنا ومواصلة التلقي كي نعرف...

وبهذا أدت الكاتبة رسالة المثقف الذي يترك للآخرين إكمال مسيرة معرفة الحقيقة، وفتحت أفقا جديدا للسؤال، وعلى المتلقي أن يجيب وأن يتابع البحث؛ ليصل إلى حل ما. فقد بات على المثقف والمفكر أن يخرجا من أبراجهما العاجية إلى أرض الواقع، وإلا فلا حاجة لوجودهما، ولا لفكرهما؛ فالفكر الذي يظل حبيس الأدراج والأوراق والكتب ينخره السوس، بل إن لم (يطرق جدران الخزان) وفق غسان كنفاني، فإنه عبثي. وأستطيع الجزم بأن هذه الرواية نواة رواية ثورة، إذ "عندما تكون الثورة جنيناً في مخيلة الشعب أو الأمة... إلى أي مدى يستطيع الأدب أن يحدد ملامح هذا الجنين غير الواضحة؟؛ بمعنى آخر: كيف يجسد الفن الأدبي "حلم" الثورة؟ (شكري، 1965، 198). وهذا، كما ظهر في نهاية الرواية، يحتاج إلى عنصرين مهمين، أولهما: الاستمرارية، وثانيهما: تراكم أدوار المثقفين.

مجلة دولية نصف سنوية محكمة شاملة تصدر عن المعهد العالمى للتجديد العربي العدد الثاني/ يوليو 3202
ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

رابعا: جماليات البعد الفني

جاء توزيع الرواية على أربعة محاور، مثَّلَها تنوعُ الرواة، ممثلا لبعد فني، استطاعت الكاتبة من خلاله الغوص في أعماق الشخصيات وصفاً وتحليلاً، وهو وصف لا يبتغي الوصول إلى تقنية الفن من أجل الفن، وإنما يسعى إلى الربط الإبداعي بين الفن والفكر والثقافة والمجتمع، وقلما نجد كاتبا روائيا يحرص على إبراز هذه الجوانب في رواية واحدة، الأمر الذي يدعونا إلى الادعاء بأن هذه الرواية نادرة في منجزها الإبداعي.

وتبعاً لهذه المحاور الأربعة جاء تعدد الرواة؛ فالمحور الأول كان الراوي فيه حكيم بن غريب جوال، وقد مثل تمهيدا عاما، فضلا عن كونه يمثل أساسا من أسس الموضوع، والمحور الثاني جاء على لسان غريب جوال الذي يمثل الشخصية الرئيسة الأولى في الرواية، والمحور الثالث كانت مريم هي الراوي فيه، وهي الرابط بين الشخصيات جميعا، وهي المغدورة. أما المحور الرابع فجاء على لسان جودي ابنة مريم وغريب، وزوجة الشهيد دانيال. ومع أن تعدد الرواة في الرواية ليس أمرا جديدا إلا أنه، في هذه الرواية، أخذ شكلاً آخر؛ إذ وازن بين الزمان والمكان والحدث في التسلسل الروائي، ولم يخلَّ بفنيتها، على الرغم من أنه لم يسر وفق تتابع الأحداث؛ بمعنى أنه أوجد رؤية فنية لعرض الأحداث تجعل المتلقي مشدودا إلى المتابعة بشغف. ولهذا لا أجد هذه الرواية ضمن أي نوع من أنواع الروايات الزمانية، لا (البيكارو)، ولا روايات الحبكة المقفلة أو الحبكة المزدوجة، ولا المزج التطابقي، ولا الرواية الانطباعية "القائمة على التعاقب الداخلي مع التخلي عن السببية وأسلوب مراوحة الزمن"(مندولا، 1997، 28)، وإن كانت أقرب إلى هذا النّوع الأخير، فالزمن في حد ذاته لم يكن هم الكاتبة الأول، إلا بمقدار ما يعنيه في صناعة الحبكة المرتبطة بالفكرة المعبرة عن زمن ما، وهو الزمن الحاضر، لكنه قد يكون أي زمن أيضا.

ويمتاز الفعل السّرديّ بـ(التأني) في إيراد الأحداث؛ يعني أن الكاتبة لا تريد أن تكون الرواية أحداثا متتابعة تفضي إلى حل، وإنما تريدها أن تقرّ في الأذهان على مهل، حتى يتمثلها المتلقي وينشغل بالتفكير الواعي في طبيعتها، وكان يمكنها أن تعرض الأحداث في ربع مساحة الرواية، لو كان هذا هدفها، ولكنها سعت إلى مخاطبة العقول والأذهان، ومحاورة الفكر، وتجدد في ماهيته؛ للوصول إلى حالة من الشعور بضرورة المشاركة الوجدانية والعقلية في قضية جماعية غير فردية. لقد بدأت الكاتبة حل عقدة الرواية في صفحة (214) من مسرودها، حين فتحوا قبر مريم ولم يجدوا جثتها في الكفن. (عيد، 2022، 214)

مجلة دولية نصف سنوية محكمة شاملة تصدر عن المعهد العالمى للتجديد العربي العدد الثاني/ يوليو 3202
ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

أمّا وصف الشخصيات والأشياء، فتقنية فنية أبدت الكاتبة فيها براعة خاصة؛ إذ لم يكن وصفا سطحيا شكليا، ولا وصفا نفسيا، ولا اجتماعيا، بل كان يجمع بين هذه العناصر جميعا، الأمر الذي يؤشر على بعد فكري يوازن بين متطلبات الفن وعناصره، ومتطلبات الواقع الفكري وأبعاده. يستذكر حكيم قول أمه له:" دعك من المكان، الله موجود ههنا، ثباته مكين، تلقي عبارتها، وهي تضرب صدرها ناحية اليسار مشيرة إلى قلبها، فإن لم يكن، توضح، فلن تجده في مسجد، أو في كنيسة، أو في كنيس" (عيد، 2022، 19)، ويتناغم هذا القول مع ما يعاكسه في الاتجاه والفكرة، المتمثّل في وصف الكاتبة ردة فعل غريب عندما تأكد له أن لا جثة في الكفن، فقال لابنته:" والدك ليس مجنونا يا ابنتي، والدك مقهور ومخدوع، قالوا له بأن حبيبة عمره قد ماتت سعيدة، حتى يتمتعوا بقتلها مرتين... لم يكتفوا بسرقة حيواتنا منا يا ابنتي، بل صاروا يلاحقوننا، ونحن في بيوتنا الأخيرة الصغيرة، ليسرقوا منا حتى هدأة الموت!" (عيد، 215).

لم تكن عناصر الرواية هم الكاتبة الأول؛ فلا الشخصيات بأنواعها، ولا الزمان بتفرعاته، ولا المكان بفضاءاته، ولا العقدة وحلها شكلّت هاجسها، بل ما شغلها بدرجة واضحة هو إبداع رؤية فكرية، وحوار متنوع الاتجاهات، مع الحرص على مغايرة السائد، في العناية بِحَثِّ الفكر الراكد، على تأويل مسارات الرواية، وهذا لا يعني أنها أخفقت في تحقيق عناصر الرواية الفنية، بل أجد أنها أبدعت في تحقيق كلا الاتجاهين معا. وهو أمر ينطوي على قدرة إبداعية، ووعي ناجز؛ إذ كان من الممكن أن تكون ردة فعل غريب عندما اكتشف الحقيقة أن يشتم ويصرخ ويهدد ويتوعد، إلا أنه عبر عن ذلك كله بعبارات لها وخزها الدائم في الضمائر. وهذا كله يستدعي وجود توازن في فكر الكاتبة ينعكس توازنا على فكر الرواية، وهو ما نقرأه بوضوح.

أما اللغة الفنية العالية فقد تجسدت وعياً جمالياً بأبعاد الألفاظ ودلالاتها؛ من ذلك قول غريب في وصف لحظة من لحظات جنون الفقد: "الخوف يرج جدران صدري، أُحسني قطاً يموء لاهثا من ذعر، ومن جوع، أروح أخبط الجدران، بكل ما تملك يداي، من عصب، ومن غضب، ومن اشتهاء؛ أضرب الجدران، وأتصبب عرقا صارخاً بهلع، والمرأة المنحوتة تتلوى أمام عيني..." (عيد، 62-63)؛ هذه اللغة تجعل المتلقي يعيش مشاهد الرواية، وكأنها ماثلة بدقتها المتناهية أمامه، فينفعل لانفعال الشخصية، يحزن معها، وربما يتصبب عرقا مثلها، ويستنجد بالقدر؛ كي يخلصها من عذابها. نعم، هي اللغة التي

مجلة دولية نصف سنوية محكمة شاملة تصدر عن المعهد العالمى للتجديد العربي العدد الثاني/ يوليو 3202
ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

تقودنا إلى العيش في عالمها، وهذا لا يتحقق إلا لكاتب مبدع، يمتلك معرفة واسعة بأسرار اللغة وفعاليتها، وتأثيرها.

خامسا: ثنائيّة التّضادّ في الرّواية

تنطلق ثنائية التوتر والهدوء في الرّواية من بعض مخرجات ثنائية الحياة والموت نفسها، ومن ثنائية الحضور والغياب، وصولا إلى ثنائية الغموض والوضوح، ما يوحي بشيء من العبثية! إلاّ أنّ جوهر الفعل ينافي ذلك؛ إذ إن ارتباط الثنائيات بالحياة ضرب من البحث في أعماق الوجود، وهذا كله يرتبط مباشرة بالعمق الفكري، وبتدبر حيثيات الحياة.

ولا بد من الإشارة إلى وجود حالة بين كل واحدة من هذه الثنائيات، تتشكل منها ثلاثيات لها حضورها الماثل؛ ومن بين هذه كلها الهدوء والتوتر، فإذا كان التوتر نقيض الهدوء، فلا بد من وجود حالة بينهما، ولا يمكن أن يظل الإنسان في حالة من الهدوء الدائم، أو التوتر الدائم (ينظر، حنني، 2010، 182وما بعدها).

إن الموقف الفني في هذه الرواية، يستدعي وجود حالات من التوتر بوصفه رد فعل طبيعي على حدث، أو على مجموعة من الأحداث، ذلك أن التوتر يخلق في النفوس حيوية دافعة ونزوعاً نحو التوليد والابتكار، ويسبغ على الأدب حلة من الجدة، وصبغة من التوهج، وقالباً زاهياً من أساليب التفكير الأخّاذة، (عويمر، 2023) في حين يخلق الهدوء حالة من النقيض الذي يفضي إلى سلاسة ورقة وعذوبة في الألفاظ والأساليب، أما ما بينهما فهو حالة من الترقب ربما تقوم غالبا على الألفاظ الحسية التي "تكون أقرب إلى إدراكنا" (إسماعيل، 1428هـ، 79)، والكاتبة هدى عيد تجاوزت حدة التوتر بماهيته المعروفة؛ لتبدو شخصياتها تعايش المتناقضات وتستوعبها، وتتجاوزها، وصولا إلى حالة من تكريس التعبير عن مضمون الثلاثيات، ويبدو ذلك جلياً في مواقف متعددة في الرواية يشدها خيط واحد من أول الرواية إلى آخرها. وأمثل على ذلك من خلال الشخصية الرئيسة في الرواية وهي شخصية غريب جوال الذي كان في بداية الرواية، كما هو من وجهة نظر ابنه حكيم، رجلا مهتما بالعلم "ينتمي أبي وأمي إلى الشريحة البشرية الطيبة التي آمنت بالعلم، وبكونه الطريق الأمثل إلى الترقي البشري في الحياة"(عيد، 23) ليضع أولى البصمات المميزة، ثم يبدأ بمؤشرات ترتقي شيئا فشيئا، فوالده هو الذي قال لأخته عن الإشاعة التي هي مثل "نقطة الماء تبقى تتغلغل عبر السطح، بحثا عن أضعف النقاط المتاحة، إلى أن

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

تجد ثغرتها. المسألة مسألة وقت ليس إلا..." (عيد، 27) وتتوالى الإشارات إلى أن يعرض الابن حديث والده عن الخيانات الفردية، وخيانات ترتكب حيال الشعوب (عيد، 46) وتبدأ الكاتبة بمتابعة التشويق، وبعض مظاهر التوتر عند الأب، إلى أن يصل الحديث، في القسم الثاني على لسان غريب نفسه؛ ولكنها لم تتخذ من التوتر تيمة تتركز حولها الأحداث، وهي كذلك، ولكنها نحت باتجاه التأني في أسلوب العرض، فكان المتلقي يتواصل متشوقا غير متوتر، ومستمتعا بأسلوب لغوي فني محيط، فَتَسْتَلُّكَ من عالم الأحلام والرؤى كما تسلّ الشعرة من العجين، ولكنها تترك بقايا لا تنسى، كما فعلت في المشهد الأول من القسم الثاني الذي يتحدث فيه غريب، عن أيامه الأولى بعد مقتل زوجته مريم، وما زال غير مصدق؛ إذ هي ما زالت امرأة من ضوء، امرأة مائية، حضورها يقرع الأضلاع.... وفقد كل هذا الجمال يترك الإنسان في أشد حالات التوتر، ثم تنتقل بنا الكاتبة إلى ما يخفف التوتر ويشحن المتلقي للمزيد من الإصرار على المتابعة للدخول في التفاصيل التي بدأت تأخذ شكل المعالجة المنطقية، ولكن أي منطق قد يخفف حدة الشعور المتيقن بالظلم وبالقهر وبالأسى!!؟؟.

على هذا النحو تستمر الكاتبة بمعاينة النفس البشرية، فتمسك بتلابيب الشخصيات والمتلقي، وهي ترسم المشاهد بتأنٍّ، حتى تجعل المتلقي يعيش أحداث الرواية بمشاعره وأحاسيسه، وليس بتسلسل بوليسي يقود إلى حل مغلف بمفاجآت. من ثمّ يكتشف الجميع، في النهاية، أن الجثة غير موجودة في الكفن؛ ويتيقن من كان يعتقد أنها قتلت، ويزيد الأمر تعقيدا أن مريم اغتصبت وقتلت ودفنت ثم سرقت جثتها. أي عذاب قد يتركه أمر كهذا في الجميع؟.. إنه طرق على قشرة الدماغ، وقرع صاخب على جدران الخزان، وثورة في وجه كل مجرم وظالم، وبداية لنهايات المتمترسين خلف مناصبهم.

بوعي هادئ استطاعت الكاتبة أن ترعى همومنا جميعا، وأن تسيطر على توترنا، وترشدنا إلى المسار الذي يجب أن يكون كي نكون. وهذا هو التوازن الذي حققته الكاتبة في نفوسنا أولا، ثم في عقولنا، ثم في واقع يحتاج بإلحاح إلى مثل هذا التوازن؛ إذ الصراخ والضجيج الفارغ لا يقود إلى حل للمعضلات الإنسانية.

وهذا التوازن الصعب والمعقد هو الذي أدَّعي أنه المنطقة الواقعة بين التوتر والهدوء؛ إذ ليس بالضرورة أن يكون حالة وسطية بينهما، بل قد يكون أشدَّ منهما معا، ولكن إحاطة الكاتبة به، بقدرتها الفنية وبسيطرتها المحكمة على الفكرة وبكل ما يتعلق بها، هو الذي يمثل هذه المنطقة؛ بذلك تتحقق الرؤية في وجود ثلاثيات في كل بنية فنية.

مجلة دولية نصف سنوية محكمة شاملة تصدر عن المعهد العالمى للتجديد العربي العدد الثاني/ يوليو 3202
ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

الخاتمة والنتائج:

هذه الدراسة "رؤية" في رواية (حبيبتي مريم) للكاتبة العربية من لبنان الدّكتورة هدى عيد، بينت أن من يعتمد الفكر أساسا لعمل إبداعي تقع عليه أعباء ثقيلة؛ أولها عبء التعبير عن الواقع بموازاة رؤية فكرية واعية تناقش هموم الواقع والمستقبل، وتمسك بتلابيب الفكرة بعناية الجرّاح المتمرس الدقيق الذي عليه أن يراعي حال مريضه، ومن يحيطون به، وعليه أن يستبطن الأعماق ليتمكن من الولوج بخفة وبرشاقة. وبعد محاورة الرواية خرجت الدراسة بأهم ما ينبغي أن يقال فيها، وهو الآتي:

- استطاعت الكاتبة د. هدى عيد في رواية (حبيبتي مريم) أن تحافظ على عناصر التحكم لبناء توازن فكري رصين، في موضوع مشحون بالتوتر والصراع، بدءا من الصراع النفسي داخل الشخصيات، وانتهاء بالصراع مع ذوي النفوذ، وذلك كله بلغة فنية عالية؛
- إن حصيلة ما أنتجه الروائيون العرب، في القرن الأخير، يدعونا إلى ضرورة تجاوز الحديث عن كون الفن الروائي فن غربي، وكل ما عداه تابع له، فقد باتت الرواية العربية بهذا المنجز المتميز في حجمه، وفي فنيته، وفي تعبيره عن واقعه، وفي مستواه الفكري والثقافي، يحتل مكانة متقدمة يمكن للرواية الغربية أن تتأثر به؛ وهذه الرواية واحدة من الروايات التي يجب أن تحظى باهتمام النقاد، ليخرجوا من عباءة الاستناد على مقولة أنّ الرواية فن غربي؛
- خاطبت الكاتبة الوعي الكامن في أعماقنا –على اختلاف ثقافاتنا ومعرفتنا– بِحِرَفِيَّةٍ عالية، ووازنت، في بناء اللغة الأدبية السامقة، بين العامة والخاصة؛
- الكاتبة بدأت نواة ثورة عميقة شاملة قائمة على أولى اللبنات، وهي رفض كل ما من شأنه أن يودي بإنسانية الإنسان في لبنان، وفي كل مكان...

مع التّنويه بأنّ الرواية ما زالت بحاجة إلى دراسات في جوانب أخرى، وما هذه الرؤية سوى جانب واحد من جوانب عديدة تحتاج الوصفَ والتحليل.

المصادر والمراجع:

أ– عيد، هدى: حبيبتي مريم، دار الفارابي، لبنان، 2022؛

ب– إسماعيل، عز الدين: الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، 1428هـ؛

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

- حنني، زاهر: الثلاثيات –رؤية نقدية في (المعلقة الفلسطينية) للشاعر خالد علي مصطفى– نموذجا، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، ع/21، 2010؛
- الخراط، إدوارد: من الصمت إلى التمرد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د.ت؛
- دحو، حسين: الأدب الموازي في الأدب العربي: إشكالية المفهوم والنظرية: دراسة في الكتابة البوليسية العربية، مجلة مقاليد، ع/09، ديسمبر 2015؛
- شكري، غالي: ثورة الفكر في أدبنا الحديث، مكتبة الأنجلوالمصرية، ط/1، 1965؛
- عباس، إبراهيم: كتاب الرواية المغاربية، تشكل النص السردي في ضوء البعد الآيديولوجي، ط/1، الجزائر، دار كوكب العلوم، 2014؛
- مؤدن، عبد الرحيم: القصة البوليسية في الأدب المغربي الحديث، فصول، مجلة النقد الأدبي، علمية محكمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع76/صيف–خريف 2009؛
- مرين، أحمد وخليفي، بشير: الرواية الفلسفية من لغة الفكر إلى واقع المجتمع، مجلة الحوار الثقافي، مج/11، ع/1، 2022؛
- مندولا، أ. أ: الزمن والرواية، ترجمة: بكر عباس، مراجعة: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط/1، 1997.

المواقع الالكترونية:

- بوحرة، غنية: مظاهر الصراع الأيديولوجي في رواية الأزمة الجزائرية، موقع مركز جيل البحث العلمي، تاريخ الأخذ 22/ 3/ 2023، على الرابط:
https://jilrc.com/archives/3330
- سحاب، فيكتور: الكتابة البوليسية، مجلة القافلة الإلكترونية، ع/46، سبتمبر/أكتوبر 2010م، تاريخ الأخذ 20/ 3/ 2023، على الرابط:
http://www.qafilah.com/q/ar/47/14/739
- عويمر، مولود: التوتر النفسي والنهضات الأدبية، مقال على موقع البصائر، تاريخ الأخذ 21/ 3/ 2023، على الرابط:
/https://elbassair.dz/20725